سبستيان أوستريتش

هيجـل

فيلسوف العالم

ترجمة

د. عبد السلام حيدر

Propyläen
Berlin 2020

لأجل نينا

"الرجل العظيم يضطر الناس لمحاولة تفسيره"

ج. ف. ف. هيجل

المحتويات

مقدمة: الميت في النعش النحاسي
الجدل أو "إعادة العرض من منظور مختلف"
توبجن والإرهاب
الكسارة متعددة الأغراض. الكل في واحد والأنا المطلقة
في باطن الأرض "الكنيسة غير المرئية"
لقاء مع روح العالم
الوعي في رحلة تربوية: *ظاهريات الروح*
اليقين الحسي
السيد والخادم في الطريق من الأنا إلى النحن
محطة النهاية "للمعرفة المطلقة"
منعطفات فرنكية ـ بافارية
في مملكة ظل الأفكار الإلهية: *علم المنطق*
الكينونة، العدم، الصيرورة
"كل الأشياء تحوي نقيضها"
التطور المنطقي
العمل على المفاهيم
السيد الأستاذ "في العسل"
دائرة من دوائر: *الموسوعة*
روح متجمدة: *فلسفة الطبيعة*
في المركز
حقيقة العقل: *فلسفة القانون*
حرية فعل الصواب
القانون والأخلاق والعادات

الأسرة والمجتمع المدني والدولة
التاريخ العالمي كتاريخ للدينونة ونهايته؟
سحر الفنون الجميلة: علم الجمال
سؤال غريتشن [1]: فلسفة الدين
خاتمة: النهاية ومستقبل الفلسفة
شكر واجب
ملاحق
ملاحظة تحريرية
المصادر والمراجع
ثبت الاقتباسات
فهرس

[1] المقصود هنا سؤال الفتاة الشعبية (غريتشن) الذي وجهته إلى (فاوست) حول موقفه من الدين. راجع هذا في الجزء الأول من مسرحية "فاوست" لجوتة (المترجم).

مقدمة: الميت في النعش النحاسي

في برلين كان ضحايا الكوليرا يوضعون بأسرع ما يمكن في سيارة الموتى المخصصة لهم، ويتم دفنهم ليلاً في مقبرة خاصة بهم. ولكن هذا المتوفى، الذي يرقد في شقته في النعش النحاسي رقم 4، والذي حدد الأطباء الكوليرا كسبب لوفاته، لم يكن أي شخص، وإنما كان جورج فيلهلم فريدريش هيجل (G. W. F. Hegel). فبعد ظهر يوم 14 نوفمبر 1831 وجد الفيلسوف الكبير "نهاية غير مؤلمة، بل هادئة ومباركة"، وذلك بعد مرض قصير استمر فقط ليوم ونصف اليوم. ومع ذلك فإن الطبيبين اللذين استدعتهما زوجته ماريا في ذلك الصباح قد أَخْطآ في تشخيصهما. فبدلاً من "الكوليرا في أكثر صورها شدة وتركيزًا"، والتي قيل إنها طورت تأثيرها المدمر داخل الجسم فقط، لكنها لم تظهر تقريبًا أية أعراض مرئية من الخارج، قالا أن هيجل على الأرجح مات بسبب ألم في المعدة عانى منه لفترة طويلة.

ولكن في شهادة الوفاة، لوحظ للمرة الأولى أن الكوليرا هي سبب الوفاة، وبالتالي تم مباشرة - تبعًا للوائح - إبلاغ لجنة الأوبئة بأمر المتوفى، فقامت اللجنة بناء على ذلك بوضع الجثة في غرفة المعيشة ثم قامت "بتعقيم كل شيء وتطهيره". وفي وقت لاحق مارس يوهانس شولتز (J. Schulze) صديق هيجل ذو الصلات الكثيرة، نفوذه كموظف كبير في وزارة الثقافة البروسية من أجل تعليق اللوائح الخاصة بدفن ضحايا الكوليرا واستثناء مراسم دفن هيجل منها. وفي النهاية منح مقر الشرطة هذا الاستثناء: لا يُسمح بتشييع الجنازة إلا بعد ثماني وأربعين ساعة، وأن يكون ذلك في وضح النهار وفي الأماكن العامة.

رغم تعرض هيجل لبعض المشاكل الصحية في سنواته الأخيرة إلا أن وفاته كانت مفاجئة. وكانت الصدمة عامة للعائلة وللأصدقاء والزملاء وللرأي العام أيضًا. وقد انتشر خبر وفاة هيجل في أرجاء المدينة ومنها إلى خارجها. وبالتالي تحولت مراسم الدفن في 16 نوفمبر 1831 إلى حدث جماهيري كبير. في البداية اجتمع الطلاب وأساتذة جميع الكليات في قاعة المحاضرات الكبيرة للجامعة كي

يستمعوا لخطبة التأبين التي ألقاها رئيس الجامعة فيليب كونراد مارهاينكه (P. K. Marheineke) عالم اللاهوت البروتستانتي وصديق هيجل لسنوات طويلة. وقد قارن مارهاينكه في خطبته تلك بين هيجل ويسوع المسيح:

> "مثل مخلصنا، تمجد اسمه دومًا في كل فكره وعمله، وفي نظريته للإلوهية أعاد التعرّف على الماهية العميقة للروح الإنسانية. وكما أسلم ابن الله نفسه للألم والموت من أجل العودة أبدًا كروح إلى جماعته، عاد هو الآن أيضًا إلى موطنه الحقيقي مجتازًا الموت إلى القيامة والمجد".

وبعد الخطبة التأبينية انطلق "موكب الطلاب الطويل الذي لا يكاد ينتهي" إضافة إلى "قافلة من المركبات التي لا حصر لها" كانت تتحرك أيضًا في اتجاه منزل المتوفى. وهناك انضم الموكب الضخم إلى سيارة الجنازة. وعلى غناء جوقة الطلاب تم نقل جثمان هيجل إلى مثواه الأخير في "مقبرة دوروتين" ببرلين؛ حيث دفن - كما كان يتمنى - بجوار الفيلسوف يوهان جوتليب فيشته (J. G. Fichte) سلفه على كرسي الفلسفة، وبالقرب من قبر زميله السابق الفيلسوف كارل فيلهلم فرديناند سولجير (K. W. F. Solger).

وهناك ألقى فريدريش فورستر (F. Förster) المؤرخ والمشرف على مجموعة الفنون الملكية، خطبة تأبينية أخرى أصبح هيجل فيها مسيحًا مخلصًا للمرة الثانية في ذلك اليوم. بل أن فورستر ذهب إلى حد التأكيد أنه في حالة هيجل - على عكس يسوع "لن يوجد بطرس" يمكنه أن "يستطيل ويسمي نفسه خليفة له". أضف إلى ذلك، كما تابع فورستر، أن مملكة هيجل - "مملكة الأفكار"- لا يمكن إيقاف توسعاتها.

على ما يبدو لم يكن هيجل بالنسبة لمعاصريه مجرد مثقف محترم من بين آخرين، بل لم يكن مجرد أستاذ جامعي بين كثيرين، وإنما كان شخصية تحرك العالم وتؤثر فيه: وتمامًا كما بدأ مع المسيح ملكوت الرب على الأرض، أسس هيجل بفلسفته مملكة الفكر وجعلها في متناول البشرية أيضًا. كان هيجل بالنسبة لتلاميذه "فيلسوف عالمي بلا نزاع"، "مؤسسًا ومتممًا لفلسفة علمية حقيقية لا تبحث - على عكس سابقاتها - بشكل أعمى عن الرؤى الفلسفية في هذا المجال أو ذاك، وإنما وصل لخطوات مؤكدة في نظام متكامل للفكر. لقد أدركت فلسفة هيجل - في نظر أتباعها - كل أساسي مما يمكن للعقل أن يدركه: مثل

التفكير نفسه، وكذلك الطبيعة التي تبدو خلاف التفكير، وليس آخرها حقيقة الروح بالكامل بما في ذلك الأخلاق والقانون والفن والدين والتاريخ. في الواقع كان هيجل يدعى أنه اخترق كل هذا وجعله في نطاق المفهوم.

لقد بنى نظامًا فلسفيًا ذا أبعاد موسوعية؛ نظام كان بمثابة علم فلسفي للعلوم. ولأنه - كما زعم فورستر في خطبته التأبينية - لم يكن هناك خليفة في الأفق، رأى البعض أن حتى وحدة العلوم نفسها أصبحت معرضة للخطر بسبب موت هيجل. فدون قدرته الفريدة على دمج وترتيب المعرفة واكتشافات فروع العلم في منظومته، فإن العلم نفسه مهدد بالتحلل والتشظي لمجالات أو نطاقات أو تخصصات منعزلة عن بعضها البعض. وقد أعرب الكاتب الصاخب والدبلوماسي السابق كارل أوجست فارنهاجن فون إنسي (K. A. V. von Ense) عن قلقه هذا في رسالة كتبها بعد يومين من وفاة هيجل:

> "لقد مزقتنا الآن فجوة مخيفة! فجوة كلما تأملناها لفترة أطول وجدنا أنها تتسع بشكل لا يمكن جسره. لقد كان هيجل في الواقع بمثابة حجر الزاوية في جامعتنا المحلية، وعليه تأسس الجانب العلمي لكل هذا، وفيه وجد الكل دعامته ودعمه. أما الآن فالانهيار يهددنا من جميع الجهات؛ فمثل هذا الارتباط بين التفكير العام الأعمق والعلم الهائل في جميع مجالات المعرفة التجريبية غاب الآن وببساطة تمامًا. أما ما بقي الآن ففردي متناثر، وعليه بداية أن يبحث عن العلاقة الأعلى والأشمل، ونادرًا ما سيجدها. وهكذا يشعر الجميع، حتى المعارضين، بما فقدوه بفقده".

لم تكتف فلسفة هيجل بإثارة الإعجاب العلمي فحسب، بل كان لها أيضًا تأثير علاجي كبير على أتباعها. لأن حقيقة أن الواقع برمته - من الطبيعة الخارجية إلى أعمق أعماق الكائن البشري - يمكن أن يكون موضوعًا لنظام فلسفي، يعني أن الواقع نفسه يحوي شئ عقلاني في أعماقه. ففلسفة هيجل تستكتشف المعقول وراء كل فرصة، وكل مصيبة، وكل ظلم، ومن ثَم فهي تحمل وعدًا بالتصالح مع القدر ومع عالم غالبًا ما يبدو فوضويًا وغير منتظم وغير عادل. أما ما يبدو بتفاصيله غير منطقي وغير مفهوم فهو - من وجهة نظر الموقف الفلسفي الهيجلي - مجرد جانب واحد فقط من العقلانية الكلية المنظمة للغاية. بهذا النوع من التفكير تمكن هيجل في نظر تلاميذه من "تحطيم

القبر الصخري للعالم"، وهذا ما جاء في قصيدة غنائية قصيرة (Sonett) مجهولة المؤلف قيلت على شرفه آنذاك.

***

بعض القراء يميلون للمبالغة المفرطة، ليس فقط في تبجيل هيجل من قبل معاصريه، ولكن أيضًا في الإدعاء العلمي الهائل، وبالتأكيد في التفاؤل العقلاني اللامحدود بفلسفة هيجل. إذ هل يمكننا حقًا معرفة أي شيء على وجه اليقين؟ ناهيك عن سبر أعماق الواقع برمته بشكل عقلاني؟ أليست هناك حدود للمعرفة وحدود للعقل؟ أليس التواضع الفلسفي لسقراط الذي يعرف فقط أنه لا يعرف أكثر لطفًا من الإدعاء المتعجرف بالعلم المطلق الذي يبدو أنه ينبثق فقط من فلسفة هيجل؟

حسنًا، ولكن كل هذا بشرطه؛ لأن التواضع الفلسفي الذي يجده بعض الناس لطيفًا للغاية ربما يكون زائفًا. وذلك أن من لا يدعي معرفة شيء ما لا يمكنه أن يخطئ. ومن يريد أن يعرف فعليه المجازفة بالخطأ. أليس الخطأ الفادح يتمثل بداية في عدم المجازفة ؟ وبحسب هيجل في مقدمته لكتابه "فينومينولوجيا الروح" (Phänomenologie des Geistes)، لماذا لا نقوم ببساطة بقلب الأمر وأن نفترض بناء على ذلك "أن هذا الخوف من الخطأ هو الخطأ نفسه؟" لذا دعونا نجازف بمحاولة التطلع لمعرفة هيجل.

الجدل أو "إعادة العرض من منظور مختلف"

حتى أولئك الذين لا يكادون يعرفون شيئًا عن هيجل سمعوا في الغالب عن الجدل الهيجلي (Dialektik). أما أولئك الذين ما زالوا يعتقدون أنهم يعرفون أكثر قليلاً فيعتبرون أن الجدل لديه يتكون غالبًا من ثلاث خطوات: الأطروحة (These)، والأطروحة المضادة (Antithese)، ثم التوليف (Synthese) بينهما[2]. ومع ذلك لا يوجد مثل هذا التوصيف للجدل عند هيجل نفسه؛ بل كان هيجل يعارض صراحة التصوير البياني المفرط لطريقته الفلسفية. وفي محاضراته حول تاريخ الفلسفة أقدم هيجل على نقد إيمانويل كانط (I. Kant) لأنه يتوجه بناء على "مخطط بياني بلا روح لهذه الأمور الثلاثة" وإبان ذلك "إعداد كل جداول (الأطروحة والأطروحة المضادة والتوليف)".

بعد وفاة هيجل قدم هاينريش موريتز تشاليبوس (H. M. Chalybäus) أستاذ الفلسفة بجامعة كيل، والذي أصبح مجهولاً اليوم إلى حد كبير، مساهمة حاسمة في تعميم "الجدل" باعتباره ثلاثي الخطوات: (الأطروحة والأطروحة المضادة والتوليف). وبمثل هذا التخطيط لم يُخطئ فقط في حق هيجل، بل ضلل العديد من منتقدي هيجل أيضًا؛ في القرن العشرين على سبيل المثال عندما انقلب المُنظِّر العلمي كارل بوبر (K. Popper) على هيجل من خلال اتهامه للعملية الجدلية المكونة من ثلاث خطوات بأخطاء منطقية لا تُغتفر، فإن انتقاده هذا ينبغي أن يقتصر على تشاليبوس ورفاقه، ولا يمتد إلى هيجل نفسه.

لكن هل هذا الرأي السائد بأن فلسفة هيجل تسير تبعًا للخطوات الثلاثة: (الأطروحة والأطروحة المضادة والتوليف) خاطئ تمامًا؟ والخلاصة أن أي شخص يطالع أعمال هيجل سيرى على الفور التقسيم الثلاثي شبه الثابت للكتب والأبواب والفصول الفرعية! فالتخطيط ثلاثي الأجزاء ليس خاطئًا بشكل أساسي، لكنه مجرد مخطط، أي منهج

---

[2] نقطة الانطلاق هنا تتمثل في "الأطروحة" هي اقتراح فكري يمثل رؤية أو موقف. ونقيض الأطروحة أو الأطروحة المضادة هو اقتراح معارض أو مناقض للأطروحة الأولى. أما التوليف فمحاولة للتوفيق بين الأطروحة ونقيضها، وتكون نتيجة ذلك تشكيل أطروحة مركبة تصبح أطروحة لحركة جدلية جديدة، إلخ (المترجم).

صارم للأساسيات الجوهرية. والأساس الجوهري بالنسبة لهيجل هو "إيقاع المعرفة".

لكن هل يجب أن يكون للمعرفة إيقاع؟ ألا تتشكل المعرفة من الوقوف على الحقائق غير القابلة للتغيير و"ضبط تسجيلها"؟ المعرفة بالنسبة لهيجل لا تفعل ذلك، أو على الأقل "المعرفة الفلسفية" هي التي لا تفعل هذا. هذه تكون دومًا في حالة "حركة"، وهذه الحركة هي تحديدًا "حركة فكرية". التفلسف بالنسبة لهيجل يعني الانخراط في هذه الحركة وقوانينها المتأصلة فيها. مخطط بياني مثل هذا الذي يشمل (الأطروحة والأطروحة المضادة والتوليف) يشبه بحرًا شعريًا أكثر مما يشبه الإيقاع. إنه مجرد نموذج عام من الضربات الإيقاعية المقطّعة وغير المقطّعة، لكن النبرات والوقفات والإزاحات التي تجعل الإيقاع حيويًا فلا يعرف المخطط البياني عنها شيئًا.

من ينخرط في إيقاع التفكير سوف يكتشف أن الأفكار متحركة، وأن حركتها تكون وفقًا لمنطقها الداخلي. ومن يتابع هذا المنطق الداخلي سوف يجرب شيئًا مدهشًا؛ فالأفكار التي تبدو صلبة تصبح سائلة، تذوب وتتحلل وتتخذ على الفور شكلًا جديدًا. عندما يتم التفكير فيها حتى النهاية، تصبح أفكارًا أخرى، بل قد تصبح أفكارًا مضادة لما سبق. الأفكار تؤدي إلى نفي نفسها، ولكنها لا تصبح عدمًا وإنما "نفي مؤكد". هذا التحول لفكرة ما إلى نقيضها هو ما يدعوه هيجل بالجدل. فنحن نتعامل مع الجدل عندما يؤدي التفكير في فكرة ما بتحولها إلى نقيضها.

الفهم المعتاد سوف يشتكي على الفور من أن المرء لا يمكنه تصور أي شيء هنا. وعلى أي حال فإن انقلاب الفكرة وتحولها إلى نقيضها يبدو أمرًا غامضًا وغريبًا بالفعل. ولكن الفهم المعتاد أصبح يعرف الجدل الآن أيضًا. حتى الحكم والأقوال المأثورة تثبت ذلك وتؤكده. ويمكن للمرء هنا أن يفكر على سبيل المثال في الحكمة الرومانية التي تقول: (summum ius, summa iniuria) وتعني: (حيث يكون "كله تمام"، يسود أكبر ظلم). فحيث يتم التشبث بحرفية القانون القائم، الذي قننته هيئة تشريعية ومن ثَم يكون وجوبيًا، ويتم الإصرار على تطبيقه بحذافيره فلا مجال فيه للاستثناء ولا أمل معه في العفو، هنا تحديدًا ينقلب العدل ظلمًا.

وليم شكسبير (W. Shakespeare) الذي حصل هيجل وهو في الثامنة من عمره على أعماله كهدية من أحد أساتذته المفضلين (السيد

الأستاذ لوفلر Löffler)، أوضح جدلية الصواب والخطأ في مسرحيته "تاجر البندقية" (*The Merchant of Venice*) بشكل مثير للإعجاب. فأنطونيو - التاجر الذي سُمى العمل المسرحي باسمه - يقترض ثلاثة آلاف دوقية من المرابي اليهودي شيلوك من أجل مساعدة صديقه بسانيو في طلب يد بورشيا الجميلة. في العقد الذي وقعه شيلوك مع أنطونيو يتنازل شيلوك عن الفائدة، ولكنه يسمح له بدلاً من ذلك بأن يقطع رطلاً من لحم أنطونيو إذا لم يتمكن من سداد المال الذي اقترضه. وبالفعل لا يستطيع أنطونيو سداد ديونه؛ لأن سفنه التجارية المحملة بالكامل لم تعد في الوقت المناسب كما كان يتوقع. وهنا يصر شيلوك، مدفوعًا بالانتقام من المسيحيين الذين طالما احتقروه كيهودي، على التمسك بالعقد الصحيح. وفقط في اللحظة الأخيرة أمكن تفادي الكارثة ببراعة قانونية مؤداها: أنه يحق لشيلوك الحصول على لحم أنطونيو فقط، ولكن ليس دمه! ولذا كان على شيلوك أن يعترف بالهزيمة.

هذا الجزء الأخير من الحبكة الدرامية لا يغير شيئًا في الجدل الحاسم. فجزارة البشر من قبل شيلوك شيء قانوني ورسمي، ولكنه في الوقت نفسه ظلم قاس دون شك. ولو تمكن المرابي من إنفاذ إرادته، لكان الأمر إيجابيًا فيما يخص إنفاذ القانون، ولكنه سيكون سلبيًا فيما يخص إرساء العدالة. هذا الإنقلاب الجدلي، من القانون الملزم الوجوبي إلى الظلم الشديد، ينشأ مفهوم "القانون الفائق"؛ عدالة مثالية تتحقق خارج كل تشريع.

كيف يرتبط القانون الفائق مع القانون الملزم الوجوبي؟هل بينهما تناقض، أم تضاد لا توافق معه، أم أنه لا يمكن الجمع بينهما في مفهوم واحد للقانون؟ هذه الأسئلة، التي لم نحصل على إجابات لها لدى شكسبير، توضح أنه مع التحول الجدلي لفكرة ما إلى نقيضها، فإن حركة الفكر لا تكون قد وصلت بعد إلى نهايتها. من المهم الاستمرار في تتبع إيقاع المعرفة.

هذا الوجه السلبي المتناقض للجدل هو في الواقع مجرد مقدمة. أما يهم في النهاية فهو الوجه الإيجابي للجدل الذي يوفق بين الأضداد: وهو "التأمل النظري" الذي يمسك "بالتناقض في وحدته"، ويتغلب على التناقضات الناتجة جدليًا ويلغيها.

مصطلح (Aufhebung) أي "الإلغاء"، هو في حد ذاته تعبير تخميني؛ فهو يجمع بين معنيين متعارضين، فمن ناحية يعني "الإيقاف

ووضع حد أو نهاية"، ويعني من ناحية أخرى "الحفظ والإبقاء". ولكن كيف ينبغي أن يتلاءم هذان المعنيان رغم أنهما متناقضين فيما يبدو؟ ولكن لاحظ أن وضع حد أو نهاية لشيء ما لا يعني بالضرورة تدميره والقضاء عليه. على سبيل المثال يمكن إنهاء علاقة حب غير رسمية، أي علاقة غرامية، من خلال تحويلها لصيغة زواج. فالعلاقة الغرامية لم يتم القضاء عليها هنا، ولكنها تواصلت بصيغة مختلفة.

هذا التغير في الصيغة أو الشكل الذي يحدث في الانتقال من الرومانسية إلى الزواج يشير في الوقت نفسه إلى معنى تأملي ثالث لكلمة (Aufhebung)؛ وهو "الترقي" أو "الرفع". ومن هنا نحتفل بالزواج لأننا نعتبر العلاقة الزوجية أعلى وليست مجرد صيغة أخرى أو شكل آخر من أشكال علاقة الحب بين شخصين. إذن فكلمة (Aufhebung) تعني في الوقت نفسه النفي، والحفظ، والعلو، وهذا يقابل في اللاتينية على الترتيب: (*negare*) و(*conservare*) و(*elevare*).

ينتج الجدل في البداية من جانبه السلبي أضدادًا وتناقضات، مثال ذلك ما بين حب الذات الأناني والمودة الحقيقية تجاه شخص آخر. فحب الذات والعاطفة تجاه شخص آخر يبدوان وللوهلة الأولى كأمرين متناقضين؛ فكل منهما نفي للآخر، فهو ضده. التأمل النظري يرفع هذا التناقض ويلغيه من خلال فهمه للحب الحقيقي بوصفه وحدة أعلى، وحدة يكون فيها حب الذات والعاطفة تجاه الآخر متحدان. فالحب إذا تأملناه وفهمناه فإنه يعني: أن تكون نفسك في الآخر وأن تجد نفسك فيه من جديد. ولذا فإن الإلغاء هو أيضًا نفي للنفي.

التأمل النظري هو مهمة العقل الأولى. والعقل التأملي يوحد وينسق، ولذا فهو حرفيًا متجاوز للحدود. وفي هذا يختلف العقل عن التعقل. هذا الأخير يقسم الأفكار والمفاهيم إلى أجزاء. يستخلص ويعزل ويفصل ويصلح. والأمر متروك للتعقل لتشريح الأشياء وتصنيفها بطريقة رصينة ثم وضعها في أدراج منظومتنا الفكرية. وبالتالي فالتعقل يؤدي وظيفة لا غنى عنها؛ فهو يعطي تفكيرنا شكلاً وبنية. ولهذا فإن هيجل ليس عدوًا للتعقل، هو فقط يعارض نوعًا من التفكير المتعقل الذي يدعي السيطرة الكاملة على أرواحنا. وهذا ببساطة لأن العقل التأملي أو التخميني ينتمي إلى التفكير أيضًا، وبخلاف فعل الفرز الذكي المتفهم، يتعلق الأمر أيضًا بحقيقة أعلى، وهي السياق العام للفكر ككل. هذا السياق لا يمكن وببساطة ضغطه وكبسه في اصطلاح

جامد، لأن هذا يعني مرة أخرى اعتماد منظور واحد محدد وفرضه على الكل. فالأمر برمته ليس شيئًا واحدًا، ولكنه عملية لا يمكن للمرء فهمها إلا في إطار حركة فكرية.

لكن هل يؤدي جدل أية فكرة ونقيضها، وكذلك التأمل النظري بوصفه إلغاء لهذا التناقض، للمجموع وليس مرة أخرى للمراحل الثلاثة: (الأطروحة والأطروحة المضادة والتوليف)؟ لا شك أن حركة الفكر يمكن أن تُبنى وتتشكل بمساعدة هذه المصطلحات، لكنها في الوقت نفسه مُضلِّلة وتشغل عن الشيء الحقيقي. فهي تؤدي إلى سوء الفهم، ويبدو المرء وكأنه يتعامل مع عناصر معزولة؛ فالأمر يبدو كما لو أن هناك ومنذ البداية أطروحة ما وعلى المرء أن يبحث لها عن نقيض خارجي ثم عن التوليف في النهاية. ولكن هكذا بالضبط يتم فقدان الطابع الحي وذاتي الحركة للفكر. ففي التفكير التأملي يجب أن تتطور (الأطروحة والأطروحة المضادة والتوليف) بشكل عضوي مبتعدة عن بعضها البعض. الخطوات الثلاثة هي كلمات ميتة في الغالب، وتختلف بالتأكيد عن الكلمة الحية للتأمل النظري.

"التأمل النظري" كما كتب هيجل "هو الجانب الأكثر أهمية للجدل، ولكنه أيضًا الجانب الأصعب بالنسبة لقوة التفكير غير المدربة وغير الحرة". وهذا ينطبق بشكل خاص على "العقل المعتاد" الذي أفسده الفهم التقسيمي. الذي يرى في كل مكان ما يقسم فقط، لا ما يوحد. لكن هيجل إلى جانب العقل المعتاد يعرف أيضًا العقل السليم أو الفطرة السليمة. فبالنسبة للعقل السليم تعتبر حقائق الفلسفة التأملية العميقة التي تم التوصل إليها بشق الأنفس أمرًا مفروغًا منه في الغالب. وهكذا يعيش الإنسان العادي بيقين أنه ليس جسدًا فقط وليس عقلًا فقط، ليس جسمًا فقط وليس نفسًا فقط، بل كليهما متحدان معًا في وحدة ملموسة: جسد-روح، جسم-نفس. فلا أحد يسيء فهم نفسه على أنه روح محلقة أو آلة جسدية، هذا طالما أنه لم يبدأ في تشريح نفسه بمساعدة عقله.

ومع ذلك فإن حقائق العقل السليم هي في البداية مجرد رؤى مظلمة تحتاج للتَرَوّي، ويجب أن تخترقها الأفكار وتفهمها في النهاية. عمل العقل الآن بكد على مفهوم الإنسان يجعل الإنسان يبدو وكأنه يتفكك إلى مكونات مختلفة ومستقلة ومتعارضة: هنا جسد، وهناك روح. وفجأة نواجه السؤال الملغز: كيف يمكن للإنسان أن يتكون من كليهما في الوقت نفسه؟ لكن هذا اللغز بحد ذاته ليس سوى نتاج للتَرَوّي. التأمل النظري يحل اللغز أخيرًا عن طريق تسييل العناصر الجامدة ،

ونقلها مرة أخرى إلى وحدة الفكر المتحركة التي نشأت منها أصلاً. وبهذا يلغي التأمل النظري رؤى العقل السليم، ويسمح له بالانتصار على العقل المعتاد.

في أحد نصوصه القصيرة التي نشرت بعد وفاته تحت عنوان (Wer denkt abstrakt) أي "من يفكر تجريديًا؟" يتناول هيجل الاتهام المعروف بأن الفلسفة والميتافيزيقا تجريديتين للغاية، وينقضه قائلاً: إن الفيلسوف في الواقع لا يفكر بشكل تجريدي، ولكن الإنسان العادي هو من يفعل هذا في غالب أوقاته. التجريد يعني مواجهة الواقع المعقد باستخدام التفكير المعتاد. وهذا ما يمكن تسميته بالتفكير المجرد الذي يعني على سبيل المثال "ألا ترى في القاتل سوى هذا الشيء المجرد، أي أنه قاتل فقط. ومن خلال هذا التوصيف البسيط يتم تدمير كل ما بقي فيه من جوهر إنساني". فمن يفكر بشكل تجريدي يميز جانب مفرد من الكل الملموس ويجعله مطلقًا؛ فالقاتل يظهر فقط كقاتل، والخادم فقط كخادم، والجندي فقط كجندي أو حتى - كما يزعم هيجل بالنسبة للجيش البروسي - "كتجريد لفاعل يمكن هزيمته". أما التفكير الملموس فهو على العكس من هذا عمل الفلسفة. والذي يفكر بشكل ملموس هو الذي يفهم الأشياء بكل تعقيداتها. وفي التفكير الملموس تتجمع العناصر المعزولة معًا لتشكل كلّاً واحدًا.

***

المهم هنا أن الجدل والتأمل النظري جعلا هيجل مفكرًا "للصيرورة"، وفيلسوفًا للفكر المتحرك. وفي الطابع هذا الطابع الدينامي لفلسفة هيجل تبين فريدريش نيتشه (F. Nietzsche) صفة خاصة بالألمان:

> "نحن الألمان هيجليون، حتى لو لم يوجد هيجل أبدًا، وذلك لأننا - على خلاف اللاتينيين - نرى في الصيرورة والتطور – بشكل غريزي - معنى أعمق وقيمة أكثر غنى مما هو"موجود" [...]".

ونيتشه لا يتفرد وحده بهذه الملاحظة؛ ففي بورتريه لأوربا من عام 1952 وجد سلفادور دي ماداراجا (S. de Madariaga) الرائد الفكري الكبير لأوربا موحدة، أن الصفة أو السمة الألمانية للصيرورة تتأكد في خصوصية لغوية:

> "في الألمانية تتم صياغة المبني للمجهول مع الفعل (werden) بوصفه فعلاً مساعدًا. هذه السمة أو الخاصية

تمنح اللغة الألمانية نوعًا من الحركية المستمرة، من السيولة والتدفق. فالسمات والحالات التي تعبر عنها الأفعال ليست ثابتة: فهي ليست كذلك، وإنما تصبح كذلك. فهي لا تقف ساكنة، بل تتحرك نحو حالاتها التالية أو بالأحرى إلى مستواها التالي الذي تتحول منه مرة أخرى إلى مستوى آخر وذلك كله في تدفقها الأبدي المستمر".

في تفكير هيجل لا يمكن للمرء أن يكتشف فقط شيئًا ألمانيًا نموذجيًا، ولكن أيضًا وبصفة خاصة شيئًا شفابيًا[3] نموذجيًا. في كتابه "العالم الفكري للشفابيين العظماء" من عام 1932 حدد أستاذ الألمانية هاينز أوتو بورجر (H. O. Burger) هيجل باعتباره تشخيصًا لأبرز نقطة وأزهاها في تاريخ الروح الشفابية. ويرى بورجر أن السمة المركزية للروح الشفابية تتمثل في تحويل عقلية "إما هذا.. أو هذا"، وهي عقلية حدية معتادة، إلى طريقة تفكير تعمل مع فئات أخرى من قبيل "لا هذا.. ولا ذاك" و"سواء أكان هذا.. أم ذاك".

واللغة الشفابية غنية بالفعل بتعابير التأمل. هكذا يحب الشخص الشفابي أن يقول: (So isch no au wieder!) التي تعني حرفيًا: "هكذا هو الآن أيضًا لمرة أخرى!". ومؤداها أنه يمكن النظر لمسألة ما من منظور مختلف تمامًا عمّا سبق. وبمثل هذه الجملة يشير الشخص الشفابي إلى المنظور الشامل المعقد لأي موضوع، وإلى طبيعته الخاصة التي تهتم بـ "هذا وذاك". وهو يشير بالتالي إلى صعوبة تطبيق كلا المنظورين إلا بشكل جزئي؛ فلا إطلاقية هناك. وبالتالي يمكن لهذه الجملة أيضًا أن تكون اعتراضًا على كل الآراء الأحادية. لأنه بعيدًا عن علاقتهم بـ "سواء أكان هذا.. أم ذاك" يسري هذا كذلك على نهج "لا هذه النظرة الفردية المجردة ولا تلك الآخرى"، فكل منهما يمثل جانبًا واحدًا فقط من كلٍ معقدٍ.

ولهذا فإن الشوق الشفابي للتوافق والوئام، والذي يتجلى عادة في الميل إلى طبيعة "سواء أكان هذا.. أم ذاك"، كثيرًا ما يُساء فهمه، ولكن ليس في شفابيا ذاتها ولا لدى هيجل شخصيًا. ولا يتعلق الأمر هنا بتسويات كسولة، ولكن بالتفكير الملموس بالمعنى الهيجلي. الحقيقة ليس تفكيرًا ملموسًا ولكن تجريدي، كما قيل من قبل، وهو فعل من ينتقي أو يختار

---

[3] نسبة إلى منطقة (شفابيا) بجنوب غرب ألمانيا، ومنها يأتي هيجل، وفي هذا ما يشير إلى السمة المحلية القحة للفلاسفة الألمان (المترجم).

جانبًا واحدًا من الكل، ثم ينظر إلى الأمر برمته من خلال هذا الجانب وحده. مثل هذه الأفكار التجريدية توقظ روح الاحتجاج الشفابية. فالشخص الشفابي الذي يفكر بطريقة "لا هذا.. ولا ذاك" وطريقة "سواء أكان هذا.. أم ذاك"، يمكنه لذلك أن يظهر كمواطن غاضب متمرد، وفي الوقت نفسه كرجل براغماتي حكيم.

وقد لاحظ معاصرو هيجل تلك الطبيعة الشفابية لتفكيره. على سبيل المثال هيرمان كورتس (H. Kurz) الذي ينتمي إلى مدرسة الشعر الشفابية، في رسالة بتاريخ 7 يوليو 1838 أرسلها إلى صديقه الشاعر إدوارد موريكه (E. Mörike) لاحظ ما يلي: "نعم أفكار هيجل تحمل صبغة قومية واضحة للغاية، (...)، [ولكنها] ليست سوى تعميق لأفكار وخواطر شفابية بامتياز".

أحد أعمال هيجل الكلاسيكية مما يعد تعميقًا للأفكار والخواطر الشفابية محاضرته (Identität der Identität und der Nichtidentität) أي "هوية الهوية واللاهوية". وبهذه الاستعمال لخص هيجل تصور صديقه فريدريش فيلهلم جوزيف شيللنج (F. W. J. Schelling) عن "المطلق" (Absolut)، وفيه يشكل "الاتحاد والتضاد" وحدتهما. مثل هذه الشفابية الفلسفية التي تقدم الأضداد كوحدة واحدة يمكن أن تُفهم تبعًا لبورجر بوصفها انعكاسات للعادات الشفابية اليومية المألوفة. هذه لا تعبر عن وحدة التقابل، بل عن "وحدة كاملة في صيغة تضاد". والأمثلة على ذلك عديدة، منها:

1. »De Alde sait mer net alles, ond de Jongs missat au net alles wissa«.

"المرء لا يخبر الكبار بكل شيء، والصغار لا يجب أن يعرفوا كل شيء".

2. »Onder allem isch Bedrug, bloß onder dr Milch isch Wasser«.

"تحت كل شيء هناك خداع، وفقط تحت اللبن يوجد ماء".

3. »Nix isch omsonscht, bloß dr Tod, und der koscht's Läba«.

"لا شيء بالمجان، لكن فقط الموت يكلف الحياة".

فهيجل لم يكن يفكر كشخص شفابي فحسب، بل كان يتكلم ويتصرف كشخص شفابي أيضًا. وبصفته أستاذًا جامعيًا كان يحض طلابه على إمعان النظر من خلال تدريسه للأفكار العميقة، ولكن كان هذا يحدث في بعض الأحيان من خلال تعبيرات غامضة تبين أحيانًا - كما في حالة كلمة (ebbes) أي "شيء" - أنها مجرد لهجة شفابية. فطبع هيجل وذاته كانا مطبوعين بما وصفه فريدريش تيودور فيشر (F. Th. Vischer) "بالهدوء الألماني الجنوبي، وبالبطء الصحي". ولا يجب أن يُساء تفسير ذلك على أنه بلادة. فالهدوء الصادق وحب كل ما هو متقن وعميق المعنى أمران يسيران في شفابيا جنبًا إلى جنب.

من وجهة نظر الدراسات الشفابية فإنها ليست مصادفة، بل إن الاعتراض هنا ناتج عن رؤية سطحية، أن هيجل - الذي سيرتقي لاحقًا إلى أعلى مستويات التأمل النظري- عندما كان طالبًا كان يفضل قراءة (Sophiens Reise von Memel nach Sachsen) أي: "رحلة صوفين من ميمل إلى ساكسونيا". وهي رواية رحلة ومغامرة بقلم يوهان تيموثيوس هيرميس (J. T. Hermes) كانت من أكثر كتب الألمانية قراءة في القرن الثامن عشر، ويرجع ذلك أساسًا إلى ما تثيره من تعاطف نفسي وما تحويه من أوصاف واقعية للحياة اليومية. لاحقًا حاول أرثر شوبنهاور (A. Schopenhauer) الذي كره هيجل بشدة وحماس جارف أن يسخر من هذه الحقيقة وذلك بأن لاحظ باستهزاء: "كان هوميروس هو كتابي الخاص المفضل، أما كتاب هيجل المفضل فكان: رحلة صوفين من ميميل إلى ساكسونيا".

لكن ربما كان الإحساس الصحي للحياة اليومية هو بالضبط ما جعل هيجل الحالم والحماسي للغاية موضع شك دائم. وعن هذا قدم لنا هاينريش هاينه (H. Heine) دليلًا على شكل حكاية رائعة:

> "في إحدى الأمسيات الزاهية الجميلة، كنا نقف بجوار النافذة متجاورين. أنا الشاب الذي يبلغ من العمر 22 عامًا، وكنت قد أكلت جيدًا وتناولت القهوة، كنت اتحدث بحماس عن النجوم فذكرت هي مقام الصالحين. أما السيد فغمغم متذمرًا: "النجوم، هَم! هَم! النجوم مجرد طفح جلدي لامع على صفحة السماء". فصرخت معابثًا: "يا إلهي ألا يوجد هناك بالأعلى حتى ولو حانة بهيجة لمجازاة الفضيلة بعد الموت؟". ولكنه رمقني بعينيه الشاحبتين وقال بحدة: "وهل تريد إكرامية لأنك اعتنيت بأمك المريضة ولم تسمم أخيك؟".

من المحتمل أن هيجل كان سيتجاوب بنفس المشاعر الهادئة طويلة البال مع التجلي الحماسي لأصحاب الخطب التأبينية على قبره – وبصفة خاصة مع مقارنتهم إياه بيسوع المسيح.

***

في حالة هيجل فإن الاتفاق مع طريقة التفكير والشعور الشفابيين ليس تقاربًا اختياريًا، بل دليل على القوة الكبيرة للنسب وللبصمة الثقافية كذلك. من المحتمل هنا أن سلف هيجل البعيد - من جهة الأب - كان لاجئًا بروتستانتيًا جاء في القرن السادس عشر من منطقة كيرنتن إلى فورتمبرج حيث وجد أحفاده موطنهم[4]. وكان الجد المباشر لهيجل موظفًا حكوميًا كبيرًا في منطقة بالغابة السوداء. وقد تزوج من حفيدة للمصلح الشهير وعالم اللاهوت يوهانس برينز (J. Brenz). أما والده - جورج لودفيج هيجل – فكان موظفًا في مصلحة الضرائب الدوقية في شتوتجارت. أما شجرة عائلة الأم "ماريا ماجدالينا" (المولودة باسم فروم) فتمتلئ بالمحامين وموظفي الخدمة المدنية، وهي تعود من ناحية الأم أيضًا إلى الجد الشفابي الأول ليوهانس برينز. في هذه البيئة الشفابية الأصيلة وُلِد هيجل في شتوتجارت يوم 27 أغسطس 1770.

كان أفراد عائلته المقربون يدعونه "فيلهلم" و"جِفّ" (G. W. F) وقد نشأ في أسرة أصبحت برجوازية باطراد، بل يمكن اعتبارها جزءًا مما يسمى بالأمانة الأرستقراطية البديلة في فورتمبرج. كان التعليم أمرًا حيويًا بالنسبة لعائلة هيجل. والدة هيجل على سبيل المثال، وكانت متعلمة بشكل غير معتاد بالنسبة لعصرها، كانت تدرس له باللاتينية، حتى أنه انتقل من المدرسة الألمانية إلى المدرسة اللاتينية قبل سن الخامسة. وإضافة إلى الانتظام في الذهاب للمدرسة حرص الأب على أن يحصل هيجل على دروس منزلية خاصة. على سبيل المثال كان كارل أوجست فريدريش دوتنهوفر (K. A. F. Duttenhofer) الذي أصبح فيما بعد أول مهندس هيدروليكي لفورتمبرج، يعطي هيجل دروسًا منزلية في علمي الهندسة والفلك، بل إن هيجل تعلم مبادئ علم المساحة على يديه أيضًا.

---

[4] كيرنتن (Kärnten) ولاية بجنوب النمسا الآن أما فورتمبرج (Württemberg) فجزء من ولاية بادن- فورتمبرج (Baden-Württemberg) بجنوب ألمانيا (المترجم).

في المدرسة الثانوية (Gymnasium illustre) ظهر هيجل ليس فقط بوصفه طالبًا مجتهدًا وموهوبًا للغاية، ولكن أيضًا كونه صبيًا شديد الطموح والتطلع. ولم ينقل عنه آنذاك أي سلوك صبياني سيء ولا أي عمل من أعمال التهور أو التمرد. وبدلاً من ذلك: تمشيات مع معلميه، وزيارات للمكتبة، وتأملات مبكرة لأحد الصبية النابهين. والحقيقة فإن الأمر الأكثر إرباكًا الذي يمكن أن نستنتجه من يوميات هيجل الصبي هو أنه لا يوجد فيها أي شيء مربك حقًا. ولكن من المطمئن على الأقل أن هيجل الصبي قد أدرك الجنس اللطيف بوصفه هذا أو هذا ما يبدو لنا. هكذا اعترف، في السادسة عشرة من عمره، بعد حضور حفل موسيقي بأن "النظر إلى الفتيات الجميلات" كان أحد أهم عوامل الجذب في هذا الحدث.

ربما أخرجه القدر من خفة الصبا مبكرًا. كان هيجل فقط في الثالثة عشرة من عمره عندما نجا من الموت للمرة الثانية بعد أن أصيب بحمى صفراوية شديدة. أما المرة الأولى التي كاد أن يموت فيها فكانت حينما أصيب بالجدري وهو في السادسة من عمره، وقد عمى إبان ذلك لعدة أيام، واستسلم الطبيب للأمر. وقد مرضت والدته جراء ذلك، لكنها على عكس ابنها لم تنج من المرض. وقد أصابت وفاتها الصبي بقوة. ومنذ ذاك فصاعدًا اعتنى الأب وحده بكل من هيجل وأخيه "جورج لودفيج" وأخته "كريستيانا لويزا" التي ظل فيلهلم على علاقة وثيقة بها مدى الحياة. وفي الثامنة عشرة من عمره غادر هيجل المنزل أخيرًا ليبدأ دراسة اللاهوت في توبنجن.

توبنجن والإرهاب

التحق هيجل بجامعة توبنجن سنة 1788، وكان آنذاك في الثامنة عشرة من عمره. وهناك التحق بسمينار الدراسات الإنجيلية الذي يسمى "معهد توبنجن" (Tübinger Stift). وكان تمويل دراسته مضمونًا بمنحة دوقية، أي حكومية. ومن فترة الدراسة التي تمتد لخمس سنوات تم تخصيص جزء لا بأس به، أول سنتين، لدراسة الفلسفة. وفي نهاية فترة دراسة الفلسفة ينبغي تقديم رسالة أو اطروحة يدافع فيها الطالب عن عمل أحد الأستاذة. ومن ينجح في هذا يمكن له أن يطلق على نفسه ليس فقط "ماجستير" (Magister)، ولكنه ينال في الوقت ذاته شهادة تعادل درجة الدكتوراة من جامعات أخرى.

وهذا المعهد الذي يُعد مؤسسة عريقة في فورتمبرج، أسسه الدوق أولريش سنة 1536، وكان لفترة طويلة مكان صناعة الكادر الروحي والعقلي للإيمان البروتستانتي في فورتمبرج. لكن عندما التحق هيجل بالمعهد كانت جامعة توبنجن التي يتبعها قد فقدت بعض صيتها بالفعل. فالدوق كارل أويجن (Karl Eugen)، الأناني المرح أحيانًا، كان قد اختار "مدرسة كارل" التي أسسها في شتوتجارت سنة 1770، والتي أصبحت في نهاية عام 1781 "مدرسة كارل العليا" وأصبحت بالتالي جامعة عامة، اختارها كمركز تدريب جديد لإعداد النخبة الشبابية. ففي مدرسة كارل هذه كان يتم تدريب الرعية حتي يمكنها تلبية الاحتياجات الدوقية العلمانية في الطب والجيش والإدارة.

فمدرسة كارل والمعهد كانا يمثلان معًا نظامًا تعليميًا صارمًا وموجهًا نحو الانضباط والنظام والطاعة. وكان من لا يلتزم بالقواعد الصارمة في المعهد يواجه ما يسمى (Caritionen) أي "عقوبات" من قبيل: حجب حصة نبيذ الغداء أو تعليق مال المنحة المتاح للطالب غير الملتزم. أما أسوأ الحالات فأن يقضي الطالب عقوبة في سجن المعهد. على سبيل المثال كان على هيجل نفسه أن يتحمل بضع ساعات من الاعتقال هناك فقط لأنه تأخر في العودة من نزهة بالخيل.

وتمشيا مع هذه العقوبات القروسطية حتى على أصغر انحراف سلوكي، تم نقل طلاب المعهد إلى دير أوغسطيني قديم على ضفاف نهر نيكار (Neckar). وكذلك أيضًا بدا نظام الملابس الخاص بالمعهد

وكأنه من بقايا العصور المظلمة التي مضت وانتهى زمنها. مثل هذه الملابس السوداء، المزينة بشرائط بيضاء تتدلى من حول العنق، والتي أُلزم طلاب المعهد بارتدائها دومًا، أكسبتهم لقب "السود" بين سكان توبنجن. ويقال إن هيجل لم يعتن برداء المعهد بشكل خاص. لذا اتهم بـ "أهمال الرداء الرسمي".

مثل هذا الانضباط الصارم للمعهد كان خير تعبير عن انحطاط عالم أوشك على الزوال، عالم شكله الاقتناع بأنه يجب على المرء أن يخضع للسلطات القائمة دون قيد أو شرط. وهذه السلطات لم تتم شرعنتها بالعقل، وإنما بالقوة والعنف وسطوة التقاليد. لكن منذ بداية عصر التنوير انتشرت أفكار الحرية الفردية والحقوق غير القابلة للتصرف، والتي تعد حقًا لكل البشر، بسبب طبيعتهم العقلانية، وليست مقصورة فقط على عدد قليل من المختارين بسبب موقع القوة الخاص بهم. ومن هنا كانت الإنسانية مدعوة للتخلص من الخرافات والدوجمائية الدينية والتبعية السياسية.

حتى اليوم فإن الإجابة شبه المقننة على سؤال "ما هو التنوير؟" هي التي قدمها إيمانويل كانط سنة 1784 ونصها: "التنوير هو تحرر المرء من من حالة العجز الذاتي التي جلبها لنفسه". فالمرء يمكنه، بل ويجب عليه، أن يفكر بنفسه لنفسه بدلاً من الإتباع الأعمى لإملاء شخص آخر. ولكن هذا الأمر تحديدًا يتطلب شجاعة كبيرة. وذلك لأن الحالة الذهنية غير المستنيرة للجماهير لا ترجع - بحسب كانط - إلى الافتقار إلى التصرفات الطبيعية المعرفية، ولكنها ترجع قبل كل شيء إلى "كسل الإنسان وجبنه".

كان كانط يدرك أن مفتاح نجاح التنوير يتمثل في الحرية السياسية "للاستفادة العامة من عقل الفرد في جميع المناحي العامة". أي شخص يتواصل مع جمهوره بصفته كاتبًا أو عالمًا، لمشاركته تأملاته النقدية، يجب ألا يعاني أية قيود من قبل المؤسسة التشريعية. وإذا تمت حماية هذا الحق، فإن التفكير الذاتي للباحث أو العالم سيحفز جمهوره تدريجيًا على المخاطرة باستخدام عقلهم الخاص وإتباع صرخة معركة التنوير: "تَحَلَّ بالشجاعة واستخدام عقلك!".

يعتمد مقال كانط التنوير، الذي ظهر قبل خمس سنوات من بداية الثورة الفرنسية[5]، على عملية سلمية للتحرر الفكري. فكانط لا يؤمن

[5] وقبل أربع سنوات من انتصار الثورة الأمريكية (المترجم).

بالأنشطة الثورية باسم التنوير؛ لأنها حسب قوله لا تؤثر في الغالب إلا على السطح الاجتماعي فقط، ولكن لا يمكنها تغيير ما هو أساسي، أي طريقة التفكير:

> "الثورة ربما تؤدي لسقوط استبداد فردي ولنهاية اضطهاد جشع أو متعطش للسلطة، ولكنها لن تؤدي أبدًا إلى إصلاح حقيقي لطريقة التفكير".

فإصلاح طريقة التفكير يمكن أن يتم، بل ويجب أن يتم، من خلال الاستخدام العام المنفتح للعقل وليس من خلال ثورة. فقط الاستخدام العام للعقل يمكن أن يكون له تأثير حقيقي على "الطبيعة العقلية للناس"، وهو ما سيؤثر في النهاية أيضًا على "مبادئ الحكم". ومن وجهة نظر كانط يمكن أن يكون النظام الملكي أكثر فائدة لقضية التنوير من النظام الجمهوري، هذا بالطبع طالما أن الحاكم نفسه مستنيرًا، مثلما كان الحال مع فريدريش الكبير في زمن كانط. وبالضبط بسبب السلطة المطلقة تمكن فريدريش الكبير وبهدوء من تمرير شعار: "جادل بقدر ما تريد فيما تريد، فقط أطع!".

هذه النظرة الألمانية جدًا لحرية التفكير والجدل مع طاعة السلطات في الوقت نفسه لم تفد الشعوب الأخرى إلا بقدر قليل للغاية. ففي الوقت الذي التحق فيه هيجل بالمعهد اللاهوتي (عام 1788) كانت الثورة الأمريكية قد انتصرت باسم الحرية. وسئم الفرنسيون بعد ذلك بوقت قصير من مثل هذه الطاعة. وفي 14 يوليو 1789 اقتحم الباريسيون الغاضبون سجن الباستيل فأعطوا بذلك طلقة البداية للثورة الفرنسية.

***

وقد أثار اندلاع الثورة الفرنسية حماسًا لا حدود له بين التنويرين، وبين المتشوقين للحرية وأصحاب العقول. وعن هذا الوقت كتب هيجل نفسه في وقت لاحق:

> "لقد احتفل كل صاحب فكر بهذه الحقبة، وساد الجميع شعور نبيل سام، واهتز العالم من حماسة الروح، وبدا كما لو أن صلحًا حقيقيًا بين الإلهي والعالم قد حدث الآن فقط".

لم تظهر سلبيات هذا الانقلاب الهائل في وعي الجمهور المبتهج إلا من بعيد وبمرور الوقت. وفي الحقيقة كان مقدرًا لتلك الثورة الكبرى باسم الحرية أن تتحول منذ ولادتها إلى بربرية مطلقة وغير مقيدة.

ويعد القتل الوحشي لضابط الباستيل برنارد هيني دي لوناي (B.-H. de Launay) رمزًا لهذا.